القلب التركيبي
(قراءة في التراث اللغوي)

حميـد الفتلـي / كلية الآداب/ جامعة بغداد

خلاصة البحث :
رافقت العربية قديماً وحديثاً ظاهرة مخالفة للمألوف على المستوى التركيبي ، وكان ذلك ضرباً من ضروب المجاز ، وهو ما عرف عندهم بـ (العدول) الذي يعني نقل الاسم من حالة لفظية إلى حالة لفظية مع المحافظة على المعنى الأصيل لذلك الاسم ، والبحث بإزاء هذه الظواهر اللغوية غير الدلالية التي تناولتها طائفة من من علماء العربية ولاسيما اللغويون والمفسرون ، وكانوا يستدلون بها في تفسير ما يعترضهم من مشاكل في تفسير النص القرآني ، والحديث النبوي الشريف ، وقد أطلق العلماء على هذه الظاهرة تسميات مختلفة ، فمنهم من سماها (المقلوب) ، ومنهم من سماها (القلب) ، ،آخرون بحثوها في التقديم والتأخير ، ورأي الباحث إنما يتشكل من خلال مراقبة هذه الظاهرة عند العلماء في بحثهم العلوم العربية ولاسيما النحو والبلاغة ، وكذلك من خلال موارد العربية ، أعني القرآن والشعر والنثر .

المقدمة :

عرفت اللغة العربية بنظامها الدقيق ، إذ يشير كل تركيب إلى معنى بذاته ، وعلامات الإعراب دلائل على اختلاف المعاني ، لكنهم قد يخرجون أحياناً عن ذلك بتقديم أو تأخير مع المحافظة على وحدة المعنى ودرجت العربية منذ القدم على مخالفة المألوف في نظام الجملة مجازاً ، وهو ما عرف عندهم بالعدول الذي يعني نقل الاسم من حالة لفظية إلى حالة لفظية أخرى مع بقاء معناه الأصلي ، ونحن بإزاء إحدى الظواهر اللغوية غير الدلالية التي تناولتها طائفة من العلماء واللغويين والمفسرين ونصوا عليها في تفسير بعض آي القرآن الكريم فضلاً عن ورودها في بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، وأطلقوا عليها تسميات مختلفة ، فمنهم من كان يسميها المقلوب ، ومنهم من سماها القلب ، وأطلق عليها آخرون التقديم التأخير أو المقدم والمؤخر وغير ذلك كما سيتضح في قابل الصفحات . ولم يغفلها أرباب البلاغة ، وبحثت في باب التشبيه ، ومثل لها في القرآن والشعر ، وكانت مواقف العلماء بإزائها متباينة ، فمنهم من أجازها مطلقاً ، ومنهم من منعها مطلقاً . ولا بد للباحث في الظاهرة من الاعتماد على التفاسير ومصنفات البلاغة وما يعنى بالمدلول المجازي للشاهد القرآني أو الشعري ميداناً للبحث . وقبل الرحلة مع هذه الظاهرة وسبر أغوارها واستنطاق الآيات القرآنية التي حوتها واستقراء النصوص الأدبية ؛ شعرها ونثرها ، وما قيل فيها من آراء لا بد من تعريف هذه الظاهرة والوقوف على أسبابها ...

التعريف :

المقلوب من الجمل أو القلب بالعبارة أو ما يسمى أحياناً بالمزال عن جهته يقصد به " تغيير تركيب العبارة عن ترتيبها المتعارف عليه ، وذلك بأن يقلب الفاعل مفعولاً أو المفعول فاعلاً أو ما يشبه ذلك مما لا يلبس معناه لدى السامع لأنَّ القصد فيه واضح .. "[١] . وجعل قدامى اللغويين القلب على نوعين ، في الكلمة وفي القصة ، كما أشار إلى ذلك أحمد بن فارس (٣٩٥ هـ) في الصاحبي[٢] . وجعله أبو منصور الثعالبي (٤٢٩ هـ) من سنن العرب ، فقال : " من سنن العرب القلب في الكلمة وفي القصة ، أما في الكلمة فكقولهم جذب وجبذ ، وضبَّ و بضَّ ، وبكل ولبك ، وطمس وطسم ، وأما في القصة فكقولهم أدخلت الخاتم في إصبعي وإنما هو إدخال الإصبع في الخاتم .. " [٣] . فقد فصل ابن فارس والثعالبي بين نوعين من القلب ، أحدهما يحصل في بنية الكلمة بتقديم بعض حروفها على بعض مثل : (أيس ويأس ، وعجوز شهربة وشرهبة أي مسنة) ، وذلك ما عني الصرفيون به وليس مجال بحثه هنا .

وأما الثاني فهو القلب الحاصل في القصة أي في العبارة وهو موضوع بحثنا ، كقولهم : (أدخلت الخفَّ في رجلي ، والقلنسوة في رأسي) ، والمعنى : (أدخلت رجلي في الخف ، ورأسي في القلنسوة)[٤] ومنه قولهم : " أجرت زيداً الدارَ وأجرت الدارَ زيداً على القلب "[٥] ، وإنما ساغ مثل هذا لوضوح المعنى ، ومنه أيضاً تهيبني البلاد أي تهيبتها ، وقولهم : (إذا طلعت الشعرى استوى العود على الحرباء) ، والأصل هو انتصاب الحرباء على العود.

وضرب اللغويون مثالاً شاع بينهم للمقلوب من الجمل ، وهو قولهم : (عرضت البعير على الحوض) ومعناه : عرضت الحوض على البعير[٦] .

وأظن أن هذا المثال ليس من المقلوب ، إذ إن الحوض ثابت وهو لا يعرض على البعير ، بل إن البعير هو الذي يقاد إلى الحوض ويعرض عليه ، ولاسيما إذا علمنا أن معنى (العرض) الإظهار ، و (عرضت المتاع للبيع) أظهرته لذوي الرغبة ليشتروه و (عرضت الجند) أمررتهم[٧] .

وهذا يعني أن البعير هو الذي عرض على الحوض لا الحوض ، وقد جاء منسجماً مع نظام الجملة ولا قلب فيه كما ظنَّ كثير منهم فإنهم توارثوا هذا المثال من دون النظر فيه والله أعلم .. جعل ابن عصفور القلب تحت عنوان (إبدال الحكم من الحكم) وفرق بين أنواع منه أحدها " قلب الإعراب أو غيره من الأحكام لأن اللفظ إذا قلب حكمه أعطي بدله حكم غيره "[٨] ، ثم ضرب أمثلة عدة لهذا النوع وكان يعلق ويفسر كل بيت ورد فيه هذا النوع من القلب ، كقول الراعي :

وصبحته كلاب الغوث يؤسدها مستوضحون يرون العين كالاثرِ

يريد : يرون الأثر كالعين والمستوضح الذي ينظر هل يرى شيئاً .

وكقول رؤبة :

ومهمهٍ مغبرَّة أرجاؤهُ كأنَّ لون أرضِهِ سماؤه

يريد : كأنَّ سماءه لغبرتها لون أرضه ..

وقول أبي النجم :

(قبل دنو الأفق من جوزائه)

يريد : قبل دنو الجوزاء من الأفق ، وغير ذلك كثير ..

والثاني : قلب حكم الإفراد والتثنية بجعل التثنية التي ينبغي أن تكون للمثنى للمفرد ، وجعل الإفراد الذي ينبغي أن يكون للمفرد وللمثنى ، كقول الشاعر :

إذ أحسن ابنُ العمِّ بعد إساءةٍ فلست لشرِّي فعله بجهولِ

يريد لشر فعليه .

ومنه قول الآخر :

كما دحستُ الثوبَ في الوعائين

يريد الثوبين في الوعاء ..

الثالث : أن يكون الاسم مذكراً فيحكم له بحكم المؤنث بدلاً من تذكيره أو يكون مؤنثاً فيحكم له بحكم المذكر بدلاً من تأنيثه حملاً على المعنى ، ومثل له بأشعار كثيرة كقول الشاعر :

إن السماحة والمروءة ضمنا قبراً بمروٍ على الطريق الواضحِ

فذكر السماحة لأنها بمعنى السماح ، ثم غلَّب المذكر على المؤنث ، ولا أرى هذا من المقلوب إنما هو من باب الحمل على المعنى أو التغليب ، وهما بابان واسعان في العربية بعيدان عما نحن فيه ..

وقد جعل ابن عصفور القلب مقيساً في الشعر معللاً ذلك بكثرة وروده فيه ولم يقل بذلك اللغويون الذين وقفت على مصنفاتهم ، وإن كثرة ورود القلب في الشعر كما زعم ابن عصفور لا يسوغ له أن يكون قياسياً فالكثرة والقلة ليستا سبباً في القياس ، ثم إن القلب ورد في أبيات محفوظة معروفة وهو ليس من الكثرة المفرطة التي تدفع ابن عصفور لأن يطلق هذا الحكم ..

أسباب القلب :

ذكرنا فيما مضى أنَّ القلب من سنن العرب ، وقد نصَّ على ذلك أوائل اللغويين وأنهم لما رأوا أنه مخالف لما جرت عليه سليقة العربي اللغوية حاولوا أن يجدوا تفسيراً واضحاً دعا إلى وقوعه فيه فراحوا يبحثون في الأسباب التي سوغت له في الشعر والنثر .ومن أهم الأسباب التي دعت إلى وقوع القلب في الشعر عندهم الضرورة الشعرية والقافية المتمثلة بحركة الروي فضلاً عن استقامة بيت من الأبيات ، وفسروا ما ورد منها في النثر بالسهو والخطأ حيناً والمجاز حيناً آخر[٩]. والظاهر أنَّ المجاز يعد مفسراً ناسباً لهذه الظاهرة في الكلام العربي ، وهو ما رجحه أستاذنا الدكتور محمد حسين آل ياسين الذي يرى " أنَّ استقراء هذه الفئة من التراكيب المقلوبة يدل على أنّ أكثرها بل كلها قصد منه المجاز باستعارة معنى لفظ آخر في التركيب الواحد وبالعكس فلا يمكن أن يفسر (ناء بي الحمل) مثلاً ، أو (يا خيل الله اركبي)

بغير المجاز البليغ ، فلا اضطرار يدفع إلى هذا التعبير ، كما لا خطأ يعترض في كلام الله أو كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولذا فإن هذه التراكيب تكون أوقع في النفس مما لو كانت واردة بترتيبها الطبيعي من الكلام "[١٠] ، فهو بذلك يردُّ هذا التركيب كله إلى المبالغة والمجاز وهو الصحيح .

وورد في العربية طائفة كبيرة من هذا النوع من المقلوب ، وللوقوف على هذه الأمثلة لا بدَّ من تصنيفها بحسب مواردها في القرآن والسنة وفي كلام العرب ، ومن مناقشتها ..

أولاً : القرآن الكريم :

ضمَّ القرآن الكريم بين دفتيه كثيراً من الظواهر اللغوية المجازية ، فإنَّه كتاب الله معجز في كل شيء فضلاً عن تفرده في الإعجاز اللغوي ، لذا فإنَّ هذه الظاهرة أخذت مكاناً معتداً به في آي الذكر الحكيم ..

ووقف اللغويون والمفسرون من الآيات التي فيها هذا النوع من القلب مواقف متباينة ، فمنهم من جوز وقوعه في القرآن ، ومثل له كالفراء وابن قتيبة والمبرد وابن فارس[١١] ، ومنهم من تشدد كثيراً وأنكر مجيئه في القرآن وإنما بابه الشعر ، ومن هؤلاء القرطبي[١٢] ، وأبو حيان النحوي الأندلسي الذي قال : " وأصحابنا يخصون القلب ضرورة بالشعر ولا يجيزونه في فصيح الكلام فينبغي أن ينزه القرآن عنه "[١٣] ، ومنهم من جوز وقوعه في القرآن ولكنه ضعيف يحتاج إلى تأويل ، ومن هؤلاء الطبرسي في مجمع البيان[١٤] . وفيما يأتي بعض من آي الذكر الحكيم التي ورد فيها القلب نضعها بين يدي القارئ ناظرين فيها ، مبينين آراء اللغويين والمفسرين ، متوخين الإيجاز في كل ذلك ..

١ - **{ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }** [١٥]

إذ الأصل بالعكس ، لأنَّ الكلام في الربا[١٦] ، إذ الأصل إنما الربا مثل البيع ، وعبارة بالعكس يطلقها اللغويون على المقلوب .

٢ - **{وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }**[١٧] .

قال الزجاج : سكت بمعنى سكن ، وسكت سكوتاً إذا قطع الكلام ، قال : " وقال بعضهم المعنى ولما سكن موسى عن الغضب على القلب كما قالوا أدخلت القلنسوة في رأسي "[١٨] .

٣ - **{ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ }** [١٩]

وللمفسرين وأرباب اللغة في هذه الآية أقوال ، فذهب قسم منهم إلى أن معنى (ضحكت) حاضت ، أي أنها حاضت فبشرناها بالولد[٢٠] وهذا التفسير ضعيف في رأيي لأنَّ السياق في الآية لا يدل عليه ، والواقع يأباه ، ثم الذي عليه أكثر المفسرين أن الكلام من باب التقديم والتأخير ، أي (فبشرناها فضحكت)[٢١] وهو الصحيح ،ويؤكده قوله تعالى : " وامرأته قائمة " وهو كناية عن سماعها لما دار بين بعلها والملائكة من حديث ..

٤ - **{ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ }**[٢٢] .

قال السيوطي : " في قوله (لكل أجل كتاب) لكل كتاب ينزل من السماء أجل فيمحو الله من ذلك ما يشاء "[٢٣] ، ويفهم من كلام السيوطي أنَّ الكلام من باب المقلوب وإن لم يصرح بذلك ، ولاسيما إذا علمنا أنَّ السيوطي من القائلين بوقوع القلب في الكلام العربي .

٥ - **{فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ }**[٢٤]

قال القرطبي : " قال القتبي هو من المقدم الذي يوضحه التأخير والمؤخر الذي يوضحه التقديم ، وسواء في قولك (مخلفَ وعدِهِ رسُلَه) و (مخلفَ رسُلَهُ وعْدِهِ)"[٢٥] وإنهم يطلقون عبارة التقديم والتأخير ويريدون بها المقلوب الذي نحن بصدده كما أوضحنا في صدر البحث .. في حين نصَّ ابن قتيبة على أنه من المقلوب بصراحة وهو يفسر هذه الآية ، قال : " ومن المقلوب أن يقدم ما يوضحه التأخير ، ويؤخر ما يوضحه التقديم ، كقوله تعالى : (فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ) أي مخلف رسله وعده ، لأنَّ الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل ، فتقول : أخلفت الوعد ، وأخلفت الرسل "[٢٦] ، واستشهد النحاة في باب الفصل بين المتضايفين بالمفعول كثيراً ..

٦ - { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [٢٧]

لم ينص الزمخشري صراحة على أن الكلام في هذه الآية على القلب ، إذ إنه لم يقل به في أكثر الآيات التي راجعتها عنده ، إلا أنه كان يلمح إلى ذلك كقوله وهو يفسر الآية الكريمة ، قال : " كان حق الإلزام أن يقال لهم : أفمن يخلق كمن يخلق ؟ "[٢٨] ، ففهم قوله بالمقلوب وإن لم ينص عليه ..

في حين نص الكفوي على ذلك فجعلها من معكوس الكلام ، قال : " إنَّ الظاهر هو العكس لأنَّ الخطاب لعبدة الأوثان وهم جعلوا غير الخالق مثل الخالق "[٢٩] ..

٧ - {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ } [٣٠]

جعل الطبرسي تفسير هذه الآية من المقلوب ولكنه ضعيف وكأنه لا يسلم بوجود المقلوب في القرآن من دون تأويل كما قدمنا [٣١] ، قال : " إنه من المقلوب والمعنى خلقت العجلة من الإنسان ، عن أبي عبيدة وقطرب ، وهذا ضعيف لأنَّ من حمل كلامه تعالى على القلب يحتاج إلى تأويل فلا فائدة في القلب "[٣٢] ..

وأنكر ذلك القرطبي أيضاً ، قال وهو يفسر الآية الكريمة : " وقيل إنه من المقلوب أي خلق العجل من الإنسان ، وهو مذهب أبي عبيدة ، وهذا القول لا ينبغي أن يجاب في كتاب الله ، لأن القلب إنما يقع في الشعر اضطراراً "[٣٣].

فإنه يعزو أسباب القلب إلى الضرورة الشعرية حصراً ولا يقول بالأسباب الأخرى ..

وجعل أحد المفسرين سبب وقوع القلب في هذه الآية إلى المبالغة في لزوم الشيء للشيء ، قال : " كأنه منه خلق لفرط استعجاله وقلة تأنيه كقولك : خلق زيد من الكرم ، جعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع منه مبالغة في لزمه له ولذلك قيل : إنه على القلب "[٣٤] ..

٨ - {اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ }[٣٥]

أورد الزجاج قولين في تفسير هذه الآية ، أحدهما : أنه من باب التقديم والتأخير ، وقد استحسنه ، قال : " فيه قولان : قال بعضهم معناه التقديم والتأخير ، معناه اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثمَّ تولَّ عنهم ، وقال هذا لأن رجوعه من عندهم والتولي عنهم بعد أن ينظر ما الجواب ، وهذا حسن ، والتقديم والتأخير كثير في الكلام "[٣٦] ..

٩ - { وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ }[٣٧]

لم ينص الأخفش على كونها من القلب لكنه يستفاد من كلامه ، قال : " وقوله تنوء بالعصبة إنما العصبة تنوء بها "[٣٨] ..

ونصَّ غيره على أنَّ في تفسيره هذه الآية وجهين :

أحدهما : على القلب ، فالأصل (لتنوء العصبة بالمفاتح أي لتنهض بها) .

والآخر : لا قلب فيه وإنَّ الباء للتعدية كالهمزة والأصل لتنوء المفاتح العصبة الأقوياء أي تنقلهم "[٣٩] ..

١٠ - { وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى }[٤٠]

قال ابن خالويه في تفسير قوله تعالى : " { وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى } ، أي جعل الله المرعى أحوى ، والأحوى شديد الخضرة يضرب إلى السواد لريِّه ثم صيره غثاءً بعدما يبس ، فمعناه تقديم وتأخير "[٤١] ، فالأصل أن يكون المرعى خضراً ثمَّ يصير يبساً إلا أن السياق القرآني جاء بتقديم (غثاءً) على أحوى) ..

ولم يجعل ابن قتيبة قوله تعالى : { فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى } من المقلوب[٤٢] في حين جعله ابن عادل منه فيما نقل عن أبي البقاء ، قال : " قال أبو البقاء : فقدم بعض الصلة يعني أن الأصل أخرج المرعى فجعله غثاءً "[٤٣] ..

مما سبق يظهر أن المقلوب أو ما يدعى بالمقدم والمؤخر أو العكس من الظواهر التي لا يمكن إنكارها أو إغفالها ولا تجاوزها في حال من الأحوال لأنها وردت في غير آية من آي الذكر الحكيم التي وضحنا بعضاً منها ، وإن تباينت مواقف اللغويين والمفسرين في ذلك ، فضلاً عن ورودها في الحديث الشريف وفي كلام العرب ؛ شعرهم ونثرهم ..

ثانياً : الحديث الشريف :

لم يخل الحديث الشريف من ذكر هذه الظاهرة على قلتها ، كما جاء في بعض المصنفات التي عنيت به وبشرحه ، من ذلك قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((زينوا القرآن بأصواتكم))[٤٤] ، قال ابن الأثير : " هو مقلوب ، أي زينوا أصواتكم بالقرآن ، والمعنى ألهجوا بقراءته وتزينوا به ، ثمَّ يورد آراء العلماء القائلين في القلب في هذا الحديث ولم يتخذ موقفاً ثابتاً منه ، فمرة قال : (هو مقلوب) ، ومرة قال : إذا كان القرآن مصدر قرأ فلا قلب في الحديث ، قال

: وقيل أراد بالقرآن القراءة ، فهو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآناً ، أي زينوا قراءتكم القرآن بأصواتكم وإن القلب لا وجه له "[٤٥] .

وجاء في شرح السندي على صحيح النسائي في شرح هذا الحديث : " فإن الكلام يزيد حسناً وزينة في الصوت الحسن ، وهذا مشاهد ... ولما رأى بعضهم أن القرآن أعظم من أن يحسن بالصوت ، بل الصوت أحق أن يحسن بالقرآن ، قال : معناه (زينوا أصواتكم بالقرآن) ، هكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث وزعموا أنه من باب القلب "[٤٦] ..

ثالثاً : عند البلاغيين :

تناول البلاغيون ظاهرة المقلوب من الجمل أو القلب غير المكاني وبحثوه في موضوع التشبيه ، فجعل المشبه به مشبهاً ، والمشبه مشبهاً به ، وأسموه التشبيه المعكوس أو المقلوب أو الطرد والعكس ، ويسميه بعضهم غلبة الفروع على الأصول ، يقول ابن الأثير : " واعلم أنَّ من التشبيه ضرباً يسمى (الطرد والعكس) وهو أن يجعل المشبه مشبهاً والمشبه مشبهاً به وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الأصول ، ولا تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض به المبالغة .

فمما جاء من ذلك قول ذي الرمة :

ورمْلٍ كأرداف العذارى قطعته إذا ألبسته المظلمات الحنادسُ

ألا ترى إلى ذي الرمة كيف جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً ، وذلك أن العادة والغرض في هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء وهو مطرد في بابه ، فعكس ذو الرمة القصة في ذلك فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء ، وإنما فعل ذلك مبالغة .. "[٤٧] .

وقد يعكس التشبيه ، فيجعل المشبه مشبهاً به ، وبالعكس فتعود فائدته إلى المشبه به لادعاء أن المشبه أظهر من المشبه به في وجه الشبه ، ويسمى ذلك (التشبيه المقلوب) أو المعكوس نحو كأنَّ ضوء النهار جبينه ، ونحو : كأنَّ نشر الأرض حسن سيرته ، ونحو : كأنَّ الماء في الصفاء طباعه ، وكقول البحتري في وصف بركة المتوكل :

كأنَّها حين لجَّت في تدفقها يد الخليفة لما سال واديها

وهذا التشبيه مظهر من مظاهر الافتتان والإبداع[٤٨] ، أما ترى أنَّ ابن الأثير ردَّ سبب المقلوب من الجمل إلى المجاز ، إذ لا ضرورة تبيح ذلك سواه ، وهذا صحيح لأنَّ العربي أراد أن يفتتن في كلامه وأنه يفهم وإن جاء مخالفاً للأصل مبالغة في المجاز ..

رابعاً : عند النحـاة :

ولم يكن النحاة غافلين عن هذه الظاهرة ، إذ وردت بعض الإشارات إليها وهم يوجهون بيتاً من الأبيات أو قولاً للعرب خولف فيه النظام العام للجملة فكانوا يشيرون إليها تصريحاً أو تلميحاً كما صنع ابن مالك في بيته الذي سيأتي من الألفية ، ومن ذلك أنه لما رأى يونس فيما نقل عنه سيبويه أن بعض الثقات يرفع المستثنى إذا تقدم على المستثنى منه في كلام منفي من نحو قولهم (ما قام إلا زيدٌ القوم) وأنه خالف لإجماع النحاة فإن سيبويه وجه ذلك بمجيئه على القلب ، قال : " حدثني يونس أن قوماً يوثق بعربيتهم يقولون : ما لي إلا أخوك ناصرٌ ، وأعربوا الثاني بدلاً من الأول على القلب لهذا السبب .. "[٤٩] .

ومن أمثلة القلب كذلك ما جاء على لسان ابن مالك في الخلاصة المعروفة بالألفية ، قال :

والاسم قد خصص بالجر كما قد خصص الفعل بأن ينجزما

قال السيوطي : " والاسم قد خصص بالجر في هذه العبارة قلب ، أي والجر قد خصص بالاسم "[٥٠] .

فإنَّ ظاهر قوله أنَّ الاسم مختص بالجر فلا يرفع ولا ينصب ، والصحيح أنَّ الجر مختص بالاسم فلا يكون للفعل ولا للحرف ..

وتطالعنا في هذا الباب قضية اختلف النحاة فيها ، أعني جواز إعمال (لم) الجازمة إذا فصل بينهما وبين الفعل بالاسم في قول ذي الرمة :

فأضحت مغانيها قفاراً رسومها كأن لم سوى أهل من الوحش تؤهل

فمنهم من جوز ذلك وعلل له بالضرورة [٥١]..

وعدَّها آخرون من أقبح الضرائر[٥٢] ، في حين جاءت جهيزة فقطعت قول كل خطيب ، فإنَّ ابن قتيبة قطع جدال القوم فأرجع ذلك إلى القلب أو التقديم والتأخير كما يحلو له أن يسميه ، وتأويل البيت عنده : " كأن لم تؤهل سوى أهل من الوحش " ، وهو نظير قوله تعالى : { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا . قيماً } أراد لأنزل الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً "[٥٣] ، فأفاد ابن قتيبة من ظاهرة القلب لتوجيه هذا البيت بشكل مناسب يبعده عن الضرورة التي قال بها كثير من النحاة .

ويرى بعض النحويين أن الفاعل قد ينتصب ويرتفع المفعول إذا أمن اللبس وساقوا لذلك أمثلة ، كقولهم : خرق الثوبُ المسمارَ ، وحجبَ الضوءُ الستارَ ، وكسرَ الزجاجُ الحجرَ .

وأرى أن ذلك كله على القلب ، فإنَّ المعنى مفهوم من السياق فلا يعسر على أحد معرفة الفاعل من المفعول في مثل هذه الأمثلة ..

خامساً : في الشعـر :

وبعد هذه الرحلة مع القرآن والحديث وكلام النحاة وما حوى كل ذلك من ذكر للظاهرة أضع أمام القارئ جملة من الأبيات الشعرية التي ضمتها ، وقد أولاها ابن عصفور عناية جيدة وبحثها في كتابه (ضرائر الشعر) في باب ما يكثر فيه التقديم والتأخير ، وعدَّ ذلك قبيحاً جداً لا ينبغي لأحد أن يرتكبه ، ثمَّ ذكر طائفة من الأبيات الشعرية منها :

١ – قال الفرزدق :

" فليست خراسان التي كان خالد بها أسد إذ كان سيفاً أميرها

وذلك أنه يمدح خالد بن الوليد ويذم أسداً ، وكان واليين بخراسان ، وكان خالد قد وليها قبل أسد ، وتقدير البيت : فليست خراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها "[٥٤] .

٢ – وقال آخر :

لها مقلتا أدماء ظل خميلة من الوحش ما تنفك ترعى عرارها

يريد لها مقلتا أدماء من الوحش ما تنفك ترعى خميلة ظل عرارها [٥٥] .

٣- قال الفرزدق :

هيهات قد جهلت أمية رأيها واستجهلت حلماؤها سفهاؤها
حربٌ تردد بينهم بتشاجرٍ قد كفرت آباؤها أبناؤهـا[٥٦]

إذ يمكن أن يجعل (حلماؤها) على أنه بدل من (أميَّة) بدل اشتمال ، و (سفهاؤها) رفع بـ (استجهلت) تقديره جهلت حلماء أمية فاستجهلت سفهاؤها ، وعلى هذا الوجه يلزم التقديم والتأخير في البيت ..

٤ – قال النمر بن تولب :

فإنَّ المنيَّة من يخشهـا فسوف تصادفه أينـما
فإن أنت حاولت أسبابها فلا تتهيّبك أن تـقدَّمـا

يريد فلا تتهيبها لأنَّ المنيَّة لا تهاب أحداً [٥٧] ..

٥ – وقال آخر :

وإنَّ بني شراحيل بن عمرو تماروا والفجور من التماري

يريد : والتماري من الفجور[٥٨] .

ومما ورد من القلب في الشعر ما أثبته بعض العلماء ، ومنه قول الفرزدق :

كانت فريضة ما تقول كما كان الزناء فريضة الرجم

أي : كان الرجم فريضة الزناء[٥٩] .

ومنه قول خداش بن زهير :

وتركب خيلاً لا هوادة بينها وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

قال الثعالبي : ويجوز أن يكون على القلب ، أي تشقى الضياطرة الحمر بالرماح يعني أنهم يقتلون بها[٦٠] ، والضيطر الرجل الضخم وجمعه ضياطرة[٦١] .

ومنه قول الفرزدق الذي أثبته ابن الأثير في المثل السائر وعلق عليه :

إلى ملك ما أمَّه من محاربٍ أبوه ولا كانت كليب تصاهره

وهو يريد إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، قال ابن الأثير : وهذا قبيح[٦٢] .

ومن ذلك ما أورده الزبيدي :

إنَّ سراجاً لكريم مفخره تحلى به العين إذا ما تجهره

قال الزبيدي : هذا من المقلوب ، والمعنى يحلى بالعين[٦٣] .

وغير ذلك من الشواهد الشعرية التي تضمنت ذكراً لهذه الظاهرة ...

نتائج البحث :

بعد هذه القراءة المستفيضة لظاهرة القلب ، وما وضعنا بين يدي القارئ من شواهد قرآنية وشعرية وغير ذلك ، وما عرضناه من آراء اللغويين والنحاة والمفسرين ، وبعد المحاولات التي خضناها لتخريج بيت أو توجيه آية أو معالجة حديث يمكننا أهم نتائج البحث ، وهي :

١. إنَّ هذه الظاهرة موجودة في اللغة العربية ، وإنها فرضت نفسها في كلام العرب وشعرهم فلا يمكن التغاضي عنها أو إنكارها بحال من الأحوال كما حاول ذلك بعض اللغويين .

٢. إنَّ هذه الظاهرة لا يمكن أن نعزوها إلى ضرورة الشعر كما أراد لها بعض اللغويين والنحاة ، فجعلها ابن الأثير وابن عصفور على سبيل المثال من ضرورة الشعر وعدَّاها من أقبح الضرائر في غير موضع من كتابه المثل السائر وضرائر الشعر وإنما دعت إليها أسباب أخرى كما فصلنا في صدر البحث لعل من أبرزها المبالغة والمجاز ، فإن هذه الظاهرة جاءت على لسان العربي في سعة الكلام ، فلا ضرورة دعت إليها إذ ليس في القرآن من ضرورة ولا في الحديث النبوي الشريف كذلك ، وإنما هي رغبة العربي في الافتتان بلغته والشعور بالحاجة إلى بعض المحاكاة اللغوية التي تثير انتباه الآخرين وإن القرآن نزل بلغتهم فلا غرابة أنه يحوي بين دفتيه هذه الظاهرة في بعض آياته الكريمات ، ثمَّ إن العربي أراد أن يثبت أن المعنى الذي يريده مفهوم وإن خولف فيه السياق .

٣. إن القلب موجود في بنية الكلمة وذلك قد بحثه الصرفيون بتقديم بعض حروف الكلمة على بعض مع وحدة المعنى فلا فرق عندهم بين صاعقة وصاقعة واضمحل وامضحل وعميق ومعيق ومكفهر ومكرهف وغير ذلك ، فإن كان هذا واقعاً ببنية المفردة فلا عجب أن يقع في التركيب ..

٤. وأخيراً فإن هذه الظاهربة تصلح أن يقف عندها الدارسون والباحثون بمزيد من التأمل فإنها جاءت على غير ما ألفته العربية من نظام في التراكيب يتطلب من الدارسين مراجعة وتعليلاً لهذا كله ..

هوامش البحث :

(١) الأضداد في اللغة : ٢١٢ .
(٢) الصاحبي في فقه اللغة : ٢٠٢ .
(٣) فقه اللغة وسر العربية : ٢٤٧ .
(٤) أضداد أبي حاتم : ١٥٣ .
(٥) المصباح المنير : مادة (أجر) .
(٦) الصحاح : مادة (أجر) .
(٧) المصباح المنير : مادة (أجر) .
(٨) ضرائر الشعر : ٢٦٦ .
(٩) ينظر / تأويل مشكل القرآن : ١٥٤ ، والأضداد في اللغة : ٢١٣ .
(١٠) الأضداد في اللغة : ٢١٣ .
(١١) ينظر / معاني القرآن : ٢ / ٦٥ ، و تأويل مشكل القرآن : ١٥٤ ، والصاحبي في فقه اللغة : ٢٠٣ ، والبرهان في علوم القرآن للزركشي : ٣ / ٢٦٢ – ٢٨٨ .
(١٢) ينظر / جامع الأحكام : ١١ / ١٩١ .
(١٣) البحر المحيط : ٤ / ٣٥٥ .
(١٤) ينظر / مجمع البيان : ٧ / ٢٦ .
(١٥) البقرة : ٢٧٥ .
(١٦) ينظر / الكليات (أبو البقاء الكفوي) : ٤ / ٧ .
(١٧) الأعراف : ١٥٤ .
(١٨) زاد المسير : ١ / ١٨١ .
(١٩) هود : ٧١ .

(٢٠) ينظر / مجمع البحرين : مادة ضحك .
(٢١) ينظر / تأويل مشكل القرآن : ٢٠٧ .
(٢٢) الرعد : ٣٨ .
(٢٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور : ٤ / ٦٥٩ .
(٢٤) إبراهيم : ٤٧ .
(٢٥) الجامع : ٩ / ٣٨٢ .
(٢٦) التأويل : ١٤٨ .
(٢٧) النحل : ١٧ .
(٢٨) الكشاف : ٢ / ٤٠٥ .
(٢٩) الكليات : ٤ / ٧ .
(٣٠) الأنبياء : ٣٧ .
(٣١) ينظر ص من البحث .
(٣٢) مجمع البيان : ٧ / ٤٨ .
(٣٣) الجامع : ١١ / ١٩١ .
(٣٤) تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل) : ٤٣٠ .
(٣٥) النمل : ٢٨ .
(٣٦) معاني القرآن وإعرابه : ٤ / ١١٧ ، وينظر / مجمع البيان : ٧ / ٢١٩ .
(٣٧) القصص : ٧٦ .
(٣٨) معاني القرآن وإعرابه : ٢ / ٤٣٤ .
(٣٩) ينظر / الدر المصون : ٥ / ٣٥٢ ، وإعراب القرآن الكريم وبيانه (محي الدين درويش) : ٥ / ٦٥٤ .
(٤٠) الأعلى : ٥ .
(٤١) ينظر / إعراب ثلاثين سورة من القرآن : ٦٦ .
(٤٢) ينظر / غريب القرآن : ٥٢٤ ، والدر المصون : ٦ / ٥٠٩ .
(٤٣) اللباب : ٢ / ٢٧٧ .
(٤٤) مسند أحمد : ٤ / ٣٠٤ .
(٤٥) النهاية في غريب الحديث والأثر : ٢ / ٣٢٦ .
(٤٦) حاشية السندي على النسائي : ٢ / ١٨٠ .
(٤٧) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ٢ / ١٦٣ .
(٤٨) المصدر نفسه : ٢ / ١٦٤ .
(٤٩) الكتاب : ٢ / ٣٣٧ ، وينظر / شرح ابن عقيل : ٢ / ٢١٧ وجامع الدروس العربية : ٣ / ٩٧ .
(٥٠) البهجة المرضية : ٢٥ .
(٥١) ضرائر الشعر : ٢٠٣ .
(٥٢) ينظر / شرح المفصل : ٨ / ١١٠ .
(٥٣) تأويل مشكل القرآن : ٢٠٧ .
(٥٤) ضرائر الشعر : ٢١٣ ، وينظر / المثل السائر : ٢ / ٢٥٠ .
(٥٥) ضرائر الشعر : ٢١٣ .
(٥٦) المصدر نفسه : ٢١٤ .
(٥٧) المصدر نفسه : ٢٦٩ .
(٥٨) المصدر نفسه : ٢٧٠ .
(٥٩) ينظر / مجاز القرآن : ٢ / ٣٨ ، والأضداد في اللغة : ٢١٢ .
(٦٠) فقه اللغة وسر العربية : ٢٤٧ .
(٦١) ينظر / لسان العرب (مادة ضطر) : ٤ / ٤٨٩ .
(٦٢) ينظر / المثل السائر : ٢ / ٢٥٠ .
(٦٣) ينظر / تاج العروس : مادة (حلي) .

ثبت المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم :
- الأضداد لأبي حاتم السجستاني ، تح أوغست هفنر .
- الأضداد في اللغة ، د . محمد حسين آل ياسين ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧٤ .

- إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، لأبي عبد الله ابن خالويه ، دار التربية .
- إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحي الدين الدرويش .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله ابن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، دار الجيل – بيروت .
- البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٢٨هـ .
- البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين الزركشي ، تح مصطفى عبد القادر عطا ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ٢٠٠١ .
- البهجة المرضية على ألفية ابن مالك ، لجلال الدين السيوطي ، تعليق : مصطفى الحسيني الدشتي ، ط١٣ ، إيران
- تاج العروس في جوهر القاموس ، لمحمد مرتضى الزبيدي ، المطبعة الخيرية ١٣٠٦ .
- تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ، شرحه ونشره السيد أحمد صقر ، ط٢ ، ١٩٧٣ .
- الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – بيروت .
- جامع الدروس العربية ، للشيخ مصطفى الغلاييني ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ١٩٨٠ .
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان .
- حاشية السندي على النسائي (شرح النسائي للسندي) ، أنور الدين عبد الهادي أبو الحسن السندي ، دار النشر للمطبوعات الإسلامية ، حلب ١٩٨٦ .
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، لشهاب الدين أبي العباس ابن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ، تح : علي محمد المعوض وعادل أحمد عبد الموجود والدكتور جاد مخلوف جاد والدكتور زكريا عبد المجيد النوتي ، دار الكتب العلمية – بيروت .
- الدر المنثور في التفسير المأثور ، لجلال الدين السيوطي ، دار الفكر ، الطبعة الأولى .
- زاد المسير في علم التفسير ، لجمال الدين الجوزي القرشي ٥٩٧هـ ، تحقيق : محمد عبد الرحمن عبد الله ، دار الفكر _ بيروت ، ١٤٠٧ .
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، إيران .
- شرح المفصل ، لابن يعيش ، عالم الكتب ، بيروت .
- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، لابن فارس ، تح : مصطفى الشويمي ، بيروت ١٩٦٣ .
- الصحاح ، (تاج اللغة وصحاح العربية) لإسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار الكتاب العربي – مصر .
- ضرائر الشعر ، لأبي عصفور الأشبيلي ، تحقيق : السيد إبراهيم محمد ، دار الأندلس ١٩٨٠ .
- غريب القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، بيروت – لبنان .
- فقه اللغة وسر العربية ، لأبي منصور الثعالبي ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان .
- الكتاب لسيبويه ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٨٣ .
- الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، لأبي القاسم الزمخشري ن طهران .
- الكليات – لأبي البقاء الكفوي ، تحقيق : عدنان الدرويش ومحمد المصري ، دار الكتب الثقافية – دمشق ١٩٧٥ .
- اللباب في علوم الكتاب ، لأبي حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض ، والدكتور محمد سعيد رمضان حسن والدكتور محمد المتولي الدسوقي حرب ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٩٩٨ .
- لسان العرب ، لأبي منظور ، بيروت ، ١٩٥٦ .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين ابن الأثير، تحقيق : د . أحمد الحوفي و د . بدوي طبانة ، منشورات دار الرفاعي – الرياض ، ط٢ .
- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، تحقيق : فؤاد سزكين ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٢ .
- مجمع البحرين لفخر الدين الطريحي ، تحقيق : السيد أحمد الحسيني ، إيران ١٢٨٦ هـ .
- مجمع البيان في تفسير القرآن ، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، بيروت .
- مسند أحمد ، للإمام أحمد بن حنبل ، دار صادر – بيروت .
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، لأحمد بن محمد المقري الفيومي ، المطبعة الأميرية – مصر ، ط٣ .
- معاني القرآن للأخفش الأوسط ، تحقيق : فائز فارس ١٩٧٩ .
- معاني القرآن للفراء ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩٥٥ .
- معاني القرآن وإعرابه للزجاج ، تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، بيروت .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة .
- معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسين احمد بن فارس ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون .
- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، تحقيق : أحمد الزواوي .